اليهود واختلاق أسطورة أرض الآباء

دراسة نقدية في الحق التاريخي لليهود في فلسطين

د محمد زركان

جامعة سيدي محمد بن عبد الله /فاس/ المملكة المغربية)

medzargane.mz@gmail.com

ملخص الدراسة

تروم هذه الدراسة كشف زيف الادعاءات اليهودية حول حقهم التاريخي في أرض فلسطين. وقد اعتمد اليهود، في إثبات ذلك، على ما جادت به الروايات التوراتية؛ خصوصاً عند حديثها عن مملكة داوود وسليمان عليهما السلام. ومن أجل تأكيد صدق قصص العهد القديم عن جغرافية الآباء المؤسسين، قام اليهود بتقديم دعم سخي لكل المراكز البحثية والفرق الأكاديمية للتنقيب عن كل ما من شأنه أن يؤكد تاريخية حكايات الآباء. لكن النتيجة كانت مخيبة لأمالهم السياسية في المنطقة من جهة، ومخيفة لأنها قدحت في مصداقية نص اعتبر مقدساً ومرجعاً تاريخياً معتمداً لفترة طويلة من الزمن من جهة أخرى.

كلمات مفتاحية: فلسطين، اليهود، العهد القديم، أساطير، التنقيبات الأثرية، عودة المسيح.

Les juifs et l'invention du mythe de la terre patriarches

Etude critique sur le droit historique de posséder Palestine

Résume

Cette étude a pour but de dévoiler les fausses revendications judaïques de posséder Palestine. Les juifs ont adopté les récits bibliques qui décrivent l'existence du royaume de Davide et royaume Salamon dans le passé. A cet effet, le système juif a bien subventionné les équipes de recherches et les centres académique pour trouver tout empreints historique mènent a prouvé les récits bibliques (récits patriarches). Alors que les résultats ont été choquants pour les tendances politiques qui visent à acquérir le pays d'une part, et d'autre part détruisant la crédibilité des textes saints tout au long de l'histoire.

مقدمة

أدى اليهود دوراً محورياً في الدراسات الاستشراقية، خصوصاً بعد الإصلاح البروتستانتي؛ الذي أولى منطقة الشرق الأوسط؛ وبالضبط منطقة فلسطين وصحراء سيناء عناية خاصة. لقد كانت جغرافيا الأماكن المقدسة محور اهتمام المسيحيين، والعنصر اليهودي بشكل خاص، الذي ما فتئ يدعم ويشجع كل الدراسات والأبحاث والبعثات الاستكشافية لجمع أكبر عدد من المعلومات عن منطقة فلسطين.

لقد اتحدت أهداف الدراسات الاستشراقية المسيحية مع الأمل اليهودي المشيحاني بعودة مملكة سليمان (عليه السلام)، من النيل إلى الفرات، للظهور مرة أخرى على أرض الواقع. كان الاهتمام المسيحي بأرض فلسطين، من جهة، له جذوره التاريخية والدينية كمكان مقدس مزار أو محج سنوي لزيارة طريق الآلام؛ الذي مر منه المسيح، حسب المعتقد اللاهوتي المسيحي، ومن جهة أخرى يهدف إلى محاولة كسر شوكة الإسلام والتغلب على المسلمين وتنصيرهم. وهو أيضاً بالنسبة لليهود أمل ديني يدعمه خيال سياسي صهيوني يتجلى في إعادة بناء الهيكل المزعوم.

يقول الدكتور محمد جلاء إدريس: " لقد تداخلت الدوافع والاتجاهات الاستشراقية، واتحدت جميعها في هدف واحد: تقديم كل العون من أجل استيطان اليهود لفلسطين، وهو هدف يحقق فوائد متعددة في آن واحد ولجميع الأطراف. فهي فرصة سانحة لتحقيق أهداف التبشير، وإرواء غليل التعصب الأوربي تجاه المسلمين، وإحياء لأمل القضاء على الإسلام. وهي فرصة كذلك للاستعمار كي ينطلق من قاعدته إلى سائر أنحاء الشرق الإسلامي. وهي فرصة كذلك لليهود وللصهاينة كي يحققوا حلمهم في استيطان فلسطين والعودة إلى أرض الميعاد"(جلاء إدريس، 1995: 86).

شجعت تفسيرات اليهود الصهيونية لنصوص العهد القديم الخاصة بحلم طال انتظاره، والذي يتعلق بإعادة مجد وأرض الآباء؛ كما يسمونها، إلى المضي قدماً، برعاية ودعم جميع المشاريع الرامية إلى تقريب وفهم الواقع السياسي والتجاري والجغرافي لفلسطين، من أجل تيسير استيطان اليهود فيها. يقول محمد جلاء إدريس: " دخل الدور اليهودي في الاستشراق مرحلة جديدة من النشاط والفعالية مع بروز الحركة الصهيونية في القرن الماضي، إذ كانت فلسطين موضع اهتمام خاص من قبل المستشرقين الأوروبيين بوجه عام لارتباطها بالكتاب المقدس، ومن ثم

حظيت بدراسات مختلفة حول تاريخها وجغرافيتها وجيولوجيتها، وقد كانت هذه الدراسات عوناً كبيراً للحركة الصهيونية، حيث وفرت لها كل المعلومات اللازمة لتسهيل مهمة الاستيطان اليهودي في فلسطين"(نفس المرجع: 86).

لم ينضب معين النشاط الاستشراقي، حتى الوقت الحاضر، والمتمثل بالأساس في الدعم السخي واللامحدود للطائفة اليهودية، المتواجدة بأوروبا أو بالقارة الأمريكية، لمراكز الأبحاث الاستكشافية والخلايا وفرق البحث الأكاديمي بأعرق الجامعات. بل وصل الأمر إلى دعم سياسي من بعض الرؤساء والملوك المسيحيين المتصهينين، من أجل تحقيق الحلم المسيحي؛ بانتشار المسيحية بين سكان المعمور. من أجل ذلك "كان الصهاينة الجدد أكثر تعطشاً من اليهود أنفسهم لاستيطان اليهود أرض فلسطين، فهم من اخترع مصطلح {أرض إسرائيل} كمصطلح جيو-سياسي معاصر، بدافع الرؤيا القائلة: إنه فقط بعد عودة (بني إسرائيل) إلى صهيون سيحل الخلاص المسيحي على البشرية جمعاء، وسيتنصر اليهود، وعندها سيحظى العالم برؤية عودة يسوع المتجددة" (ساند، 2014: 12-13)

1) بداية فعل حركة استكشاف فلسطين

شجع الاهتمام الديني والسياسي الأوروبي بمنطقة فلسطين، خصوصاً بعد حركة الإصلاح البروتستانتي، اليهود للمساهمة في دعم الأبحاث والأعمال الاستكشافية الخاصة بفلسطين، "فقد أتاحت حركة الإصلاح الديني البروتستانتي في القرن السادس عشر الفرصة لنهوض اليهودية القومية من خلال التغيرات اللاهوتية التي جاءت بها، وأبرزها الترويج لفكرة التفضيل الخاصة بالشعب اليهودي، والتأكيد على ضرورة العودة اليهودية لفلسطين، وكذلك توجيه الاهتمام إلى اللغة العبرية باعتبارها لغة مقدسة، وقد ساعدت هذه الملابسات والظروف على إيجاد تربة ملائمة لنمو الصهيونية الدينية" (جلاء إدريس: 87)

بدأت أولى التطبيقات العملية للدراسات الميدانية لفلسطين على مراحل متتابعة، يمكن ترتيبها كالآتي:

- ✓ [1731- 1805] مشروع انكتيل ديبرون، الذي يهدف إلى خلق محور يهودي في المنطقة، حيث قام ديبرون برحلات استهدف من ورائها البرهنة على وجود، شعب الله المختار، وارتباطه في الماضي والحاضر بفلسطين؛

✓ [1798] حملة نابوليون، التي كانت تهدف إلى تأكيد الميراث اليهودي لفلسطين، وعلى الرغم من أن حملت بونابرت على فلسطين انتهت بالفشل على اسوار عكا سنة 1799، إلا أنه كان أول زعيم سياسي أوروبي يصدر دعوة رسمية لليهود لتحقيق آمالهم وإقامة كيانهم على أرض فلسطين، وقد نشرت دعوته هذه في 1977.03.20 في أثناء حصاره لعكا (محمد صالح، 2012:26)؛

✓ [1801] تأسيس جمعية فلسطين في لندن، وقد قامت بدراسات عن المنطقة؛

✓ [1803] تأسيس الجمعية الجغرافية الملكية، التي أتمت عمل سابقتها (جلاء إدريس: 87)؛

✓ [1838] انطلاق البعثة التنقيبية لكل من "إدوارد وربنسون وإيلي سميت"، التي حسب كلام روبنسون قد قادتهما عبر مشاهد، مرتبطة بالعديد من الأسماء، والأحداث، والأفعال التاريخية، مثل إبراهيم، وسليمان، وشاول، ويونان، وداود، وصموئيل؛ فقد تمكنا من تحديد الأماكن التي عاشوا ونشطوا فيها، واستطاعا أن يتعقبا ما يمكن اعتباره خطواتهم ذاتها" (الدبش، 2013: 14). وقد أسست هذه الرحلة ما يسمى "بمفهوم "التحولات اللغوية"، التي أفضت إلى قلب أسماء الأماكن العبرية القديمة إلى أسماء عربية حديثة، حيث زور روبنسون عشرات المواقع القديمة، بمساعدة سميث، الذي وضع أثناء عمله مبشراً، قائمة بالأسماء العربية، لقرى فلسطين. فقرية (عناتا) لم تكن فيما يبدو إلا (عنتوت) الكتابية؛ مسقط رأس النبي إرميا، و(جباع) كانت (جبعة)؛ إحدى مدن بنيامين، و(مخماس) بدت مناسبة تماماً لساحة معركة شاؤل في (مخماس)، و(بيتن) كانت (بيت إيل) محطة توقف إبراهيم، ومنطقة (الجب) هي (جبعون) الكتابية؛ حيث قام يوشع بتجميد الشمس في مكانها" (الدبش، 2013: 14)؛

✓ [1852] أنشأت القيصرية الروسية لجنة من المستشرقين والمتخصصين في المسائل العربية ضمت بين أعضائها عناصر يهودية، وكان هدفها الأول تهيئة الوسائل اللازمة لتأسيس بيوت لإيواء المهاجرين اليهود إلى فلسطين وإنشاء المستشفيات لمرضاهم تحت إشراف البهثة الروسية التي اتخذت من القدس مركزاً لها. وقد أرسلت روسيا سنة 1864وفداً من أعضاء الجمعية إلى فلسطين سراً لإقامة الملاجئ والمصحات والدور اللازمة للزوار اليهود الذين يصلون إل القدس لزيارة بيت المقدس (جلاء إدريس: 88-89)؛

✓ [1865] تأسيس صندوق استكشاف فلسطين (البريطاني)، الذي تركز هدفه على التقصي العلمي لآثار فلسطين، وجغرافيتها، وجيولوجيتها، وتاريخها الطبيعي (بوفرة، 2006: 14). ويشرح كيث وايتلام طبيعة مهمة هذا الصندوق بقوله: "كان أول أعمال هذا الصندوق، المسح الجغرافي لفلسطين، والذي جاء على شكل 26 خريطة مفصلة تفصيلاً دقيقاً، كما وصل تصنيف الأماكن إلى 46 تصنيفاً؛ كانت مثلاً (مدينة، قرية،

خِربة، بير، مزار، تل، نبع، قلعة، نهر....). كما صدرا مع الخرائط 10 مجلدات، تشمل الجيولوجيا، والنبات، والحيوان، والطير، والمياه، والآثار، والطوبوغرافيا، وملاحظات عن المعني التاريخي لقرى فلسطين" (وايتلام، 1999: 17).

- ✓ [1871] تأسيس صندوق استكشاف فلسطين الأمريكي، وقد تركز عمله في شرق الأردن (الدبش: 18).

تميزت مرحلة الاستكشافات الأولى بمحاولة الربط بين الروايات التوراتية والأماكن الفلسطينية، فقد تعمدت البعثات الاستكشافية إلى تزوير متعمد لجغرافية فلسطين بإسقاط الأسماء التوراتية وحذف مقابلاتها العربية، في محاولة لإثبات رابطة تاريخية ودينية بين اليهود وأرض فلسطين. وقد استطاعت الجهات الداعمة لهذه العمليات، الحصول على قاعدة بيانات ضخمة عن فلسطين، سهلت لهم التوغل والاستيطان بشكل تدريجي وسلس.

1) اختراع مصطلح "أرض إسرائيل"

كان أول ظهور لمصطلح "أرض إسرائيل"، خلال القرن السادس عشر والسابع عشر، على يد حركة "الصهاينة الجدد"، والتي هي امتداد تاريخي للحركة "التطهيرية" التي انبثقت عن البروتستانتية في بريطانيا (ساند، 2014: 12-13). ويخبرنا الكاتب الإسرائيلي "شلومو ساند" بأنه أثناء عملية كتابة تاريخ المنطقة تم ادخال مصطلح "أرض إسرائيل" كأداة توجيه ورافعة للتخيل الجغرافي للاستيطان الصهيوني، فبدءاً من كتب التدريس في المدارس وحتى أطروحات الدكتوراه، ومن الأدب الرفيع من الشعر والغناء، وحتى الجغرافيا السياسية، يُستخدم هذا الاسم كشيفرة خطابية [....] وعلى رفوف الدكاكين وفي المكتبات الجامعية، تصطف مجلدات حول "أرض إسرائيل" ما قبل التاريخ، وحول "أرض إسرائيل" في فترة الحكم الصليبي، وحول "أرض إسرائيل" تحت الاحتلال العربي، إلخ. وعندما تحظى الكتب الأجنبية بترجمة عبرية، يتم بشكل منهجي تبديل اسم "بلسطينا" أو "بلستينا" ب "أرض إسرائيل". حتى في كتابات كبار الصهاينة كثيودور هرتسل، وماكس نوردو ودوف ابربوروخوف، وكثيرين غيرهم، والذين استخدموا، كمعظم مؤيديهم، الاسم الشائع "بلستينا"، تم حذف الاسم المعين وتم تبديله دائماً ب "أرض إسرائيل" (ساند، 2014: 41-42).

والأمر لم يقف عند هذا الحد، فقد طالت عملية تزوير المصادر التاريخية أثناء ترجمتها إلى اللغة العبرية وحتى العهد القديم نفسه، أدخلوا فيه مصطلح "أرض إسرائيل"، يقول نفس الكاتب: "لقد تم تحريف ترجمات بعض الكتب، بما فيها العهد القديم، فقد صدر في العام 2004 ترجمة لسفر المكابيين الأول وتظهر "أرض إسرائيل" في المقدمة وفي الهوامش 156 مرة. وترجمة الجامعة العبرية كتابات يوسيفوس فلافيوس، وتجرأوا على غرس "أرض إسرائيل" داخل الترجمة نفسها" (ساند، 2014: 45).

2) علم الآثار والبحث عن هيكل سليمان

لم تكن المجهودات المبذولة للبحث عن الشرعية التاريخية لليهود بأرض فلسطين بالهينة، فقد بُذل جهد ووقت ومال كثير، للتنقيب عن دليل أركيولوجي واحد يؤكد أحداث التوراة الكبرى؛ التي حكيت على لسان أنبياء العهد القديم. وقد "نَظر قُراء التوراة، في جميع أنحاء العالم، إلى عصر داود وسليمان كعصر ذهبي في تاريخ إسرائيل. حتى فترة قريبة كان العديد من العلماء يتقبلون فكرة أن الحكم الملكي المتحد كان الفترة التوراتية الأولى التي يمكن أن تكون موثوقة تاريخيا فعلاً" (فلكنشتاين وسيلبرمان، 2007: 167)، ولا يمكن التشكيك فيها إطلاقاً.

ولن نتعب أنفسنا هنا باستعراض المكتشفات التاريخية التي اكتشفت في منطقة فلسطين، وظهر زيف تفسيرها بأحداث التوراة، سواء تلك الحالمة في العثور على بقايا أسوار مملكة سليمان، أو الأخرى الباحثة عن نقش أو قطعة فخار تعود للفترة التاريخية الملكية المجيدة حسب الرواية التوراتية. يقول الباحثان الإسرائيليان إسرائيل فلكنشتاين ونيل أشر: "لقد أخفقت التنقيبات الأثرية التي أجريت، في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حول جبل الهيكل في أورشليم (القدس) في التعرف حتى على مجرد أثر بسيط لهيكل سليمان الأسطوري" (فلكنشتاين وسيلبرمان، 2007: 173). دفعت هذه الوضعية ببعض الباحثين، إلى تزوير قطع أثرية، وذلك بوضع حروف ونقوش تعود لحقبة بناء الهيكل على وجه الخصوص، ويمكن أن تمثل لذلك؛ برمانة المعبد (الشواف، 2006: 307-309)، إلا أنها هي الأخرى تم كشف حقيقتها باستعمال التقنيات الحديثة.

كانت عملية الاستيطان سابقة لظهور نتائج تحاكم المصداقية التاريخية للعهد القديم، فقد كان من الخطأ الجمع بين اسم فلسطين والعهد القديم، لبعد العلاقة بينهما من جهة، ولأن عمليات التنقيب لم تقدم إجابات مؤكدة ومصدقة لما جاء في العهد القديم. وكنتيجة طبيعية لذلك؛ نشب صراع فكري حاد بين بعض المفكرين الغربيين حول "دور المعتقد الديني في البحث التاريخي، والسعي إلى إثبات مصداقية نص العهد القديم. ومن ذلك

ما أثاره توماس تومسون في الدورية الاسكندنافية للعهد القديم تحت عنوان {دور المعتقدات في البحث التاريخي}، وقد تحدث فيها عن أن أكثر الجهود التي تثبت التاريخ الإسرائيلي القديم تنطلق من فرضيات دينية بضرورة صحة رواية العهد القديم" (الجندي، 2016: 207).

خيبت نتائج البحث الأركيولوجي فئة عريضة من المتتبعين في الغرب المسيحي، فئة متشبعة بوهم لا صلة بينه وبين الأحداث التاريخية الحقيقية التي وقعت بفلسطين. فظهر ضعف تفسيرات الباحثين الأوائل من أمثال "إدوارد وربنسون وإيلي سميث"، اللذان قاما بتزوير متعمد لبعض الأماكن الفلسطينية، وغيرهم ممن حدا حدوهم وسلك طريقهم. دفعت خيبة الأمل إلى ظهور جيل أكاديمي، يهودي، من داخل مراز أبحاث يهودية أثبت عدم صحة المرويات التاريخية من داخل نصوص العهد القديم، "فقد أعلن فيليب ر. دافيز أن أدب العهد القديم لم يأت من إسرائيل، وليس نتاج حياة حقيقية، فهو في الأساس اختلاق كاتب جالس على كرسي الكتابة، فنحن أمام أدب أنتج هوية وهمية" (الجندي، 2016: 226).

ونفس الأمر أكده عالم الأثار الإسرائيلي وأستاذ قسم حضارة الشرق القديم في جامعة تل أبيب البروفيسور "زئيف هرتسوغ" في تقريره الموسوم ب {التوراة: لا إثباتات على الأرض} ... بقوله: بعد سبعين عاماً من الحفريات المكثفة في أرض فلسطين توصل علماء الآثار إلى نتيجة مخيفة، لم يكن هناك شيء على الإطلاق، حكايات الآباء مجرد أساطير، لم نهبط من مصر، ولم نصعد من هناك، لم نحتل فلسطين، ولا ذكر لإمبراطورية داود وسليمان" (الدبش، 2009: 17).

خاتمة

لقد عاكست نتائج البحث الأركيولوجي جميع تلك التوقعات، ولم يظهر على أرض الواقع ما يدعم تاريخية المزاعم التوراتية في منطقة فلسطين أو غيرها، وبقي تحقيق كيان سياسي يسنده تفسير ديني، مجرد سراب أنتجته مخيلة اليهود الدينية. الشيء الذي انعكس سلباً على قدسية التفسيرات اللاهوتية للكتاب المقدس بشكل عام، وعلى العهد القديم بشكل خاص. و لم تَجُد منطقة فلسطين، ولا غيرها؛ من النيل إلى الفرات، بما كان متوقعاً منها، ولم ترحب بالقادمين إليها من الباحثين، والمستكشفين؛ الحاملين لمشروع سياسي، والحالمين بوطن يجمع شتات قوم فرقتهم رياح الأحداث التاريخية.

قائمة المصادر والمراجع

- الدبش، أحمد. (2009). كنعان وملوك بني إسرائيل في جزيرة العرب. خطوات للنشر والتوزيع. دمشق. سوريا.
- عبد المقصود الجندي، أحمد. (2016). أيديولوجيا تفسير العهد القديم. رؤية للنشر والتوزيع. القاهرة. مصر.
- فلكنشتاين، إسرائيل وأشر، سيلبرمان نيل. (2007). التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها: رؤية جديدة لإسرائيل القديمة وأصول نصوصها المقدسة على ضوء اكتشاف علم الآثار. ترجمة سعد رستم. صفحات للدراسات والنشر. دمشق. سوريا.
- ساند، شلومو. (2014). اختراع أرض إسرائيل. ترجمة أنطوان شلحت وأسعد زعبي. مدار. المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية. رام الله. فلسطين.
- بوفرة، عبد الكريم. (2006). "من اللسانيات إلى علم الآثار الأركيولوجي اللغة العبرية نموذجاً". حضارة الشرق القديم بين الآثار وحفريات الإبداع. تنسيق أحمد شحلان وإدريس عبيزة. سلسلة ندوات ومناظرات. 35. مطبعة النجاح. الدار البيضاء. المملكة المغربية.
- الشواف، قاسم. (2006). فلسطين التاريخ القديم الحقيقي منذ ما قبل التاريخ إلى الخلافة العباسية. دار الساقي. بيروت. لبنان.
- وايتلام، كيث. (1999). اختلاق إسرائيل القديمة اسكات للتاريخ الفلسطيني. ترجمة سحر الهنيدي. سلسلة عالم المعرفة. 249. الكويت. الكويت.
- محمد صالح، محسن. (2012). القضية الفلسطينية خلفياتها التاريخية وتطوراتها المعاصرة. مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات. بيروت. لبنان.
- جلاء إدريس، محمد. (1995). الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية. العربي للنشر والتوزيع. القاهرة. مصر.